من تراب (٢٧٠) متى نفقد الصدق ؟ (*) الطريق!

الناس فى تعلقهم بالصدق صنوف ودرجات، وصدقهم مهما صدق صدق نسبى لأنه بشرى .. ونحن نفقد تعلقنا بالصدق حين نكف عن اعتباره قيمة تعلو على أنفسنا ورغابنا وعلى المصلحة والمنفعة .. حين لا ندرك أن قيمة الصدق فيه وأنها لا تتوقف على نفعه لنا، أو حين تصبح المصلحة هى حد الصدق وتدخل الفوائد والمنافع فى تعريفنا له !

إننا نفقد الصدق حتما حين لا ترى ضمائرنا بأسا من الترحيب بالكذب والباطل المتوجين بأكاليل المصلحة الحاضرة والانحناء لهما- للكذب والباطل ! وإفساح الطريق أمامهما .. حين نشعر بأن الصدق رداء ونرى أننا أحرار فى اختيار نوع الصدق وفى صنعه وفى التحكم فى مقوماته، وأن مشيئتنا وإرادتنا فوق فكرة الصدق والكذب والحق والباطل.

إننا نفقد الصدق - فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد - حين ننسى أنه لا يعيش إلاّ إذا كان سقفا واحداً لمشيئة البشر، وفوق نسبية أحكامهم وآرائهم .. نفقده حين ننسى أنه "أداة القياس" " النهائية " التى تقاس بها كل القيم، أو حين نغفل أنه قيمة مطلقة لا يرد عليها قيد أو استثناء إلاّ بإذن قيمة مطلقة أعلى منها مصدرها الله عزّ وجل .

إن ميل كثير من الناس إلى الكذب على أنفسهم وعلى غيرهم ميل طاغ، يبين أن الضمائر وحدها أو ما نسميه القانون الأخلاقى والإيمان

(*) المال٢/٦/٢٠٠٩

بالإنسانية - لا يقوى فى الغالب على صد هذا الميل إلى الكذب وردّه، ويبين أن الناس - بشهادة حالهم - فى أشد الحاجة إلى سلطة فوق أنفسهم يسلمون لها بالقدرة على معرفة وكشف كذبهم، ويسلمون بأن عمل هذه القدرة لا يمكن أن يفسد بالرشوة والزلفى أو بالضغط والقسر، أو أن يصلل بالمكر والحيلة .. هذه القدرة " سلطة " فوق قدراتنا البشرية - خيرها وشرها - لا تضعف بالاعتياد، ولا تفقد نفوذها ومكانتها مع طول الاتصال والمعاملة .. هذه السلطة لايمكن قط أن تكون سلطة أرضية، لأن كل سلطة أرضية هى حتما سلطة بشر مهما أسبغنا عليها من أوصاف وتصورات فلسفية أو قانونية !

هذا وبرغم ما نراه من زحام والتصاق مادى، فإن أهل هذا العصر بُعداء غرباء، يخافون من الود والثقة .. وفى أعماقهم وحشة وعزلة وربما بُغض للروابط التى تربطهم بالآخرين بوثاقة وعمق . ذلك لأننا لم نعد نمارس التعلق بالصدق، وأنسانا الذين يهمهم أن ينسى العالم قيمة الصدق - أنسونا أننا وإن أمكن أن نختلف حول البينات، فإنه لا يجوز أن نختلف على الصدق ذاته والولاء له كقيمة مطلقة .

فى هذا العالم الذى لايحب التعلق بالصدق، يبدو دين الصادق الأمين غريبا يوشك أن يكون مطلبا بعيدا عن ممارسات ومداورات وحيل وأساليب الناس . وليس يمكن اعتناق الصدق إلاّ بالشجاعة والإخلاص، وقوامهما الإيمان بالولاء المطلق لله عزّ وجل، هذا الولاء الذى تتضاءل أمامه رغاب المنافع والمآرب والأغراض، وتعلو قيم الحق والكمال والجمال .. إلى شجرة الجمال والكمال تنتمى كل الشمائل والسجايا ومنها سجية الصدق، وهى سجيّة مانحة، تنعكس على كل ما يصدر عن الإنسان فى عبادته ومعاملاته وعمله .. حين يغيب الصدق أو يهن، تختل بوصلة الأشياء، وتتبهم المعانى، ويتوه الناس عن الحق الذى هو قبلة كل عاقل مدرك لمعنى وقيمة الولاء لله عزّ وجل .